

اسماً جديداً هو (دون كيشوت) بعد أن كان اسمه (كيخادا)، وسمي حصانه (روسينانته)، أي الحصان السابق، بعد أن كان من دون اسم لا سيما وإن عرفنا أنه ليس جواداً بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما هو (كديش) ليس إلا، ولكنه رآه أهم فرس في الدنيا لأنه لا يملك سواه، ولكي يستوفي شروط الفروسية بقي عليه أن يختار شخصين اثنين، الأول: حامل السلاح، والثاني: العشيقة، فكان أن اختار جاره الفلاح البسيط (سانشو) حاملاً لسلاحه، وتبعاً له، وأن اختار (الدونزا) الفلاحة البسيطة أيضاً عشيقته له وسيدة في الوقت نفسه، وخلع عليها اسم (دولسينيا دل توبوسو) وهي فتاة عادية من قرية مجاورة لقريته يصفها سرفانتس بأنها قليلة الجمال والثقافة والحضور، كان يعرفها قبل أن تظهر عليه أعراض الفروسية، وقد نمت تلك المعرفة في ذهنه وخياله إلى أن صارت حباً، فعشقا، ثم هذياناً أشبه بالجنون، وقد سماها (دولسينيا دل توبوسو) أي السيدة العظيمة أو الأميرة ذات الشأن والعزة، ونسبها إلى (توبوسو) اسم بلدتها لتعطي هذه البلدة - كما رأى - قيمة وقدرًا وشهرة، ووعدها غياباً في خطبة عصماء ألقاها في يهو بيته قبل خروجه، أن يرسل إليها الظلام والطغاة، وآكلي حقوق الناس، والمضطهدين أيضاً لكي يركعوا عند قدميها ويطلبوا منها المغفرة والعفو، وليلقوا على أسماعها بالغ الأثواق والتحيات المرسلة من فارسها الملهم دون كيشوت، الذي بفضلها لا يخاف من شيء، ولا يجبن أمام أية مغامرة لأنها تمدّه بقوة خرافية ما كان له أن يمتلكها لولاها، وهو من دونها لا يساوي شيئاً إذ يصير مثل السماء بلا كواكب، أو الأشجار بلا أثمار أو أوراق، أو الجسد بلا روح، وبهذا.. ربط دون كيشوت المصير الإنساني وشده إلى ثنائية الذكورة والأنوثة التي لا غنى لطرف منهما عن الطرف الآخر، ولذلك تصح تسمية رواية (دون كيشوت) بالرواية الأنثوية لأن أفعال دون كيشوت ومغامراته كلها مصبوغة التوجه نحو الأنثى ومرضاتها من جهة، ولأن الدافع الأساسي لهذا التوجه يتمثل في أن تكون الأنثى (دولسينيا) موزعة لأخبار البطولة والفروسية التي كانت يسببها من جهة ثانية بما فيها من قيم إنسانية رفيعة المستوى، وغايات نبيلة مهدوفة.

ومواضع علاقة دون كيشوت بالمرأة بارزة في الرواية وحاضرهما بقوة إما قبل المغامرة أو في أثنائها أو تالية عليها، ولعل الإطار العنام الذي يحكم نظرة دون كيشوت للمرأة يتمثل في أمرين اثنين، الأول: عشقه لـ (دولسينيا) باعتبارها المرأة المنقطعة النظير، سيدة أفعاله، ومانحة القوة لتساعده أو المهمومة